الجدارية المقدسية *

رامز فريج - الأردن

كنت في الخامسة من عمري عندما زرت فلسطين لأول مرة، ذهبنا إلى قريتنا في ضواحي القدس ولا زلت أذكر الرائحة الزكية ويعبق بها صدري. ذات يوم نادى علي جدي ودعا جدتي وقال لها: «حجمي الصبي واعملي له أكواب النار والهواء».

ما أن انتهت جدتي من سحرها حتى خرجت أركض وأجري أداعب الجدران بلمسات من أصابعي الصغيرة.

كنت أشعر بأياد تمتد لي من خلال الجدران من داخلها من جوفها وكأنها تصافحني تارة وتختطفني تارة أخرى وأنا أضحك ضحكة الطفولة وفجأة وجدت نفسي أقف أمام جدتي صهيوني يحمل رشاشا موجها فوهته باتجاهي وهو يصرخ بكلمات غير مفهومة لدي... التفت إلى الخلف فإذا بجدي يركض يرمح نحوي وأنا أراه كذلك.. اختطفتني من خضم الصيحات والضجيج يد خفية.. اختطفتني بلمح البصر.

بدأت الظلمة تتشح وتنزل وعيناي تشقان طريقهما النور، فإذا بي مستلق تحت شجرة زيتون عملاقة عمرها آلاف السنين.. إنه الفجر. تلفت حولي فوجدت موقد نار يتصاعد منه الدخان. وبالرغم من ذلك لازال الجو باردا. ويبدو أن أحدهم كان يقوم على حراستي إلا أن الغموض يكتنف المكان، تبادر من فوره إلى ذهني سؤال واحد: أين أنا؟.

أذكر أن جدي كان يركض صوبي هلعا وفزعا لكن ماذا حدث بعد ذلك!... لا أذكر ورأسي يؤلمني بشدة. وصرت أسمع صوتا أعرفه جيدا.. هذا صوت المؤذن في القدس يؤذن لصلاة الفجر. لقد قررت أن أمشي باتجاه صوت الأذان تاركا الشمس خلفي وعندها ستكون القدس أمامي غربا. لكنني سأصلي أولا تاركا الشمس على يساري متجها للجنوب الشرقي قليلا.. نعم سأصلي الفجر أولا.

بدأت المسير، صرت أمر بقبور لا أعرفها.. وهناك بيارات الحمضيات واللوزيات.. وهذه الصخور والحجارة مألوفة لدي.. لمحت من بعيد أحدهم جالسا على صخرة كبيرة جدا فاقتربت منه، إنه شيخ مقاعن في السن يحمل في يده نبوتا — عصا غليظة- وكأنه يحرس شيئا ما. اقتربت منه أكثر، وألقيت عليه السلام. فابتسم رغم تجاعيد وجهه التي لا تكاد تظهر تعبيره. فسألته: من أنت يا شيخ؟.

أجابني بصوته الجهور الذي هزني هزا: أنا جدك الأكبر يبوس جد العرب والكنعانيين.

سألته: «ماذا تفعل هنا يا جدي؟».

* فازت بالجائزة الثالثة في مسابقة القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩م والتي أجراها المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض.

أجابني: «أجلس هنا مدافعا عن ابنتي الأميرة العذراء وأحميها من الوحوش وغيرهم من القردة والخنازير، وأحميها من مؤامرات الخيانة والغدر وهذا ما دأبت عليه منذ آلاف السنين».

نظرت حولي وحول المكان، لم أر أحدا أو شيئا حتى ساد الهدوء وشعرت بالغرابة، لقد سكنت الريح ومع السكون برهة من الزمن ووقف جدي بيوس، ثم خرجت من تحت عباءته فتاة.. فتاة غاية في الجمال، تشدني عذوبتها.. ويبرق ثوبها المخملي المطرز في وجهي كأنه طرز فيه المسجد الأقصى البهي بزخارفه وفنون العمارة الإسلامية وقبة الصخرة المطلية بالذهب، وترى في ثناياه كنيسة القيامة وتلمع في ثوبها منبر صلاح الدين ويخطف بصرك البراق. أما جدائلها وعيناها الكحيلتان وجمالها فترى فيها وجوها تعرفها وأخرى لا تعرفها، كلما نظرت في عينيها أكثر غصت في بحور زرقاء وترى فيهما خوفا ودموعا.

من هول ما رأيت في عينيها وقرأت في ثوبها المخملي كالدم، جثوت على ركبتي وحنيت رأسي قائلا: «مولاتي».

قالت: «انهض فأنت مني».

دهشت، دمعت عيني، قلت: «أرجوك، ضميني».

قفزت كالطفل المدلل إلى حضنها كأنها أمي وأغمضت عيني والفرح يجوب أوردتي وشراييني أعراس بارود جياشة.

أستيقظ اليوم بعد أكثر من خمسين عاما وأنا في حضنها، مازلت أركض في ممرات الحي الشرقي منها.. من القدس، أصافح الأيادي التي تمتد إلي من الجدران حتى أصل إلى الجدارية الرائعة جدارية القدس التي تروي تاريخ جدي الأكبر الكنعاني اليبوسي وقصصه، وتروي قصص حضارات الروم والفرس وتقص خبر الفدونيين وغزو المغول، وتتحدث عن فتح بيت المقدس ومفتاح عمر وتروي قصص قادة الجيوش والشهداء وتروي الأساطير المقدسية، وهناك أرى بوضوح.. نعم أرى المسجد الأقصى وما توالى عليه من تخريب وإحراق وترميم وإعمار، ويبقى الأقصى مشعا في الجدارية رغم تقلب الأحداث.

تحت تلك الجدارية الرائعة الدامعة جلست أمي العجوز تقلب العجين، وعلى رأسها الطرحة البيضاء وهي تردد الأهازيج وتقول:

«يا لولجي يا لولجي
ما حالكي عند دار أبي!..
فوقي تراب تحتي تراب
نوم الغراب يا عربي».

جلست بقربها وما هي إلا دقائق حتى جاء حفيدي ذو الأربعة عشر ربيعا وقال: «جدي.. جدي.. حدثني قصصا من الماضي». نظرت في عينيه وقلت له: «سأروي لك قصصا من عجين الفلاحة، اسمع:

كان يا ما كان في قديم الزمان قوم يدعون اليبوسيين، وكانوا ذوي بأس شديد، يحكى أنهم عاشوا على أرض فلسطين قبل الميلاد بآلاف السنين ومنهم ومن بعدهم جاء الكنعانيون أجدادنا..

لم أكد أنطق بكلمة أخرى حتى قفز الولد من حجري قائلا وبطلة أدب: «أووووف.. تاريخ تاريخ.. تاريخ». عندها قامت أمي وأخذته عند عجينها وهي تطيطب على ظهره بهدوء، وقالت: «اسمع يا ولدي هذه القصة».

كان يا ما كان في قديم العهد والزمان، عاشت فتاة رائعة الجمال وكان اسمها إيلياء، كانت رائحة عطرة تفوح من إيلياء أينما ذهبت، ويراها الجميع نضرة، فقد كانت عذراء ولا تكبر أبدا.

إيلياء، كانت تبتهج بقدوم الزوار من كل حدب وصوب وفي مواسم الحج تفيض بالكرم وتملأ القلوب بالفرحة. إيلياء، يا والدي رفضت الزواج من قياصرة الروم ومن أباطرة العالم ومن قادة الجيوش والأمراء الذين تقدموا لخطبتها كل يوم وكل عام، تسابق جميع هؤلاء للحصول على إيلياء وشنوا الحروب وقدموا القرابين والدماء والأرواح طمعا فيها وفي رضاها أو حتى قبلة منها. بعضهم زارها ومكث في بيتها سنين وسنين، ولكن دون جدوى. ظلت إيلياء تلبس ثوب العفة وبقيت عذراء.

حيث إن إيلياء كانت محلما للجميع، كانت كلما غزا أرضها غاز خاب رجاؤه، وعاد من حيث أتى أو قضي عليه. فقد كان لدى إيلياء جنود أقوياء مخلصون يحمونها بدمائهم وأرواحهم.

ذاع في الكون صيت إيلياء، حتى وصلت سيرتها إلى مسامع ساحر خبيث شرير يدعى صهيون الذي كان يكره كل شيء جميل ويسعى إلى دماره. عندما سمع صهيون بجمال ونقاء إيلياء استشاط غضبا وجُنّ جنونه. وقرر أن يمحو هذا الجمال عن وجه الأرض، وصار يخطط ويسهر سنوات وسنوات بكيد لإيلياء ويخطط لخطفها من بين أحبتها ويعلم بكيفية تدنيس عفتها واستعباد قلبها حتى توصل لخطة خبيثة محكمة!!

تظاهر الساحر الخبيث بأنه مسكين وطلب وذهب لزيارة الأميرة العذراء إيلياء، وبدأ يتقرب إلى من حولها بالقرابين وصار يرسل إلى جنودها الهدايا والأموال حتى حانت اللحظة الحاسمة في خطته الحقيرة. لن تصدق ما فعله.. قام بدعوة حراس الأميرة إلى وليمة ضخمة مشددا إليهم مدعيا صداقتهم.

أقام الساحر الخبيث صهيون وليمته، التي حضر إليها الغالبية العظمى من جنود وحراس الأميرة المبجلة. وكان قد صنع سُمّا خاصا لا يقتل وإنما يعطيه السيطرة على الجنود والحراس وتصرفاتهم فيحركهم كيفما يشاء وبالطريقة التي يريدها مما سهل عليه مهمة اختطاف الأميرة إيلياء القدس.

فهلله الساحر ساخرا من الحراس القلة الذين حاولوا استعادة وتحرير الأميرة إيلياء القدس، وكان إذا عصى أوامره أحد الحراس والجنود أمر بسجنه وتعذيبه أو نفيه أو قتله. كل ذلك أدى إلى وقوع الفتنة بين الجنود والحراس وانتشار الخلافات، فصارت إيلياء وحيدة تدافع عن نفسها وعفتها ورغم كونها حبيسة لدى الساحر صهيون إلا أنه لم يستطع أن ينال منها. وبقيت تبتسم للمساكين من خلف قضبان السجن مما أثار حنقه وغضبه وحقده. ففكر وكاد ودبر ثم قرر. فأقام مراسم للسحر الأسود وأمر بصلب إيلياء القدس وإشعال النيران تحت قدميها. وأمر بوسمها بنجمة سداسية ملتهبة كالجمر على جبينها أمام العالم أجمع. وأمر بوشم صدرها أمام الناس بشيء سماه هيكل سليمان وألقى عليها لعنة أن تبتلع أرواح أحبتها وأن تشرب من دماء أبنائها كل يوم.

قفز حفيدي وصرخ: «لا...».

قالت له أمي: «يا ولدي لقد ثارت ثائرة الأحرار والنساء والشيوخ والأطفال وكانوا ينتفضون ويثتحبون وكانت إيلياء تبكي على حالهم. وفجأة انطلق صوت الزغاريد. وفاحت رائحة البارود. وابتسمت القدس ابتسامة جميلة جدا تتجر منها قلب الساحر الشرير صهيون وتحجر جسده».

سأل حفيدي: «كيف حدث ذلك ومن أين أتت الزغاريد؟».

قالت أمي: «إن القلب يا ولدي يضخ الدماء في العروق. وقلب إيلياء القدس هو المسجد الأقصى المبارك. فإذا كانت الحياة حولها رائعة، وقربها جنات، فكيف إذا ما كانت دماؤهم تجري في عروقها. وأرواحهم تسكن في جدرانها وفيها؟!».

نهض حفيدي وقال بشموخ: «أنا أيضا سأذهب للقدس، أسقيها دمي حتى ترتوي، وأسكن روحي فيها، فأنا منها».

عادت أمي إلى عجينها مبتسمة والدمعة المخمورة عالقة بين أهداب العين وهي تترنم وتقول:

يما مويل الهوى يما مويلنا

العيشة فيها رضى والموتة هنية

يما مويل الهوى يما مويلنا

دمي وروحي وافده للقدس هدية■